معركة قتل الوقت

بقلم الأستاذ س . ق

العالم كله مشغول فى هـــذه الأيام بمعارك البر والبحر والجو التى تشغل الأمم والأفراد وتستغرق نشاطهم وتفكيرهم إلا المصريين فانهم مشغولون بمعركة أخرى أهم من هذه المعـارك جميعا . تلك هى المعركة الخالدة ، معركة " قتل الوقت " التى تشغل بال العـدد الأكبر من سكان وادى النيل !

فكل من يلقاك يقول لك : إنه كان " يقتل الوقت" . وهم جميعا ضيقو الصدر بهذا الوقت الذى يعود حيا كلما قتلوه . وهم يقتلونه مرة على المقاهى فى لعب النرد والدومينو والشطرنج أو التطلع إلى المـارة وإلى الرائحات والغـاديات بعيون كلها شره مريض ، ومرة فى قزقزة اللب والقيل والقال والغيبة والنميمة والسعاية بين الناس ، ومرة فى قراءة الوريقات الساقطة التى تلبى أقذر الغرائز الحيوانية فى النفس البشرية ، ومرة فيما هو أحط من هذا وذاك !

ومع هذا الجهد كله فما يزال الوقت يغالب هؤلاء المجاهدين فى المعركة ، وما تزال تتلقى فى اليوم عشرات منهم يشكون إليك فراغ صبرهم من هذا الوقت العنيد الذى لا يقتل ولا يموت !

وما هو هذا الوقت الذى يقتله هؤلاء المسـاكين ؟ هو العمر الذى لا يخطر إلا مرة واحدة فى الوجود . هو الرصيد المحدود الذى ينقص كل يوم ولا يزيد . هو الكنز الذى لا يعوض ما ينفق منه على مر الأيام . هو الدقائق والثوانى واللحظات التى تمنحها الحيـاة لأبناء الفناء فاذا مضت فى الغيب المجهول فان تتراءى بعد ذلك ولن تعود !

فيا للمساكين الأشقياء ! !

إن أبناء هذه الأرض لا يملكون أثمن من هذا الوقت الذى يقتله المصريون ، وإن الدقائق بل الثوانى بل اللحظات بل مدى الأنفاس الصاعدة الهـابطة لأعز ما وهبته القدرة الخالدة لهؤلاء الفانين التعساء . وإن الحياة لأنفس ما يحويه هذا الكون من ذخائر وكنوز . ومن كان فى شك من ذلك فليقف هنيهة أمام اللحظة الفاصلة بين الموت والحيـاة ، تلك اللحظة التى لا تذكر فى الزمان ولكنها تفصل بين عالمين لا مشابهة بينهما فى سمت ولا كنه . . . عالم الموت فى عالم الحياة .

إن الفاصل السحيق بين الذرة الحية والذرة الجامدة لهو فاصل الملايين التى لا تعد من الأجيال والآباد ، والطاقة التى لا تحد من القدرة الخالقة ، فمـا بالك بالفاصل الهائل بين الحياة الإنسانية الراقية ، وبين الجثة الميتة الجامدة ؟ . . . ومع ذلك فهذه الحياة الغالية هى التى يقتلها التعساء وهم يقتلون الوقت الثمين ! ! !

غير أن الحياة التى ينفقها هؤلاء رخيصة ، والوقت الذى يقتلونه زهيد ؛ فهى حياة بلا أهداف ، وهو وقت بلا وظيفة . هى حياة فى نفوس ضامرة هزيلة ، ووقت لدى أناس فارغين تافهين ، وإنما تغلو الحياة وينفس الوقت حين تكون للنفس هموم عالية ، وأهداف إنسانية ، وحين توسع المعرفة آفاق الأذهان ومرامى النفوس فتعظم الحياة وتكبر ، وتضيق فسحة العمر عن المطالب والآمال ، وتقصر عن مدى التطلع والطموح .

وهؤلاء الذين "يقتلون الوقت" إنما يتخاصون من عبء ثقيل ، وبضاعة لا يستطيعون تصريفها ، فلهم بعض العذر ، لأنهم لم يتعودوا إنفاق الوقت فيما يفيد ، ولم يمرنوا على الانتفاع بفرصة الحياة القصيرة المحدودة ، ولم تزود نفوسهم فى الصغر بما يغذيها من المطامح والآمال ، ولم تفت أنظارهم إلى الشؤون العامة والهموم الإنسانية التى ترفع من شأن الحياة .

وكثير منهم لا تشغله حتى هموم اللقمة الحقيرة . فالحياة كلها فراغ ، والوقت لديه طويل ممل لا تملؤه سوى التسيات الزهيدة ، فهو يضيق به ويحاول أن يقتله كل يوم ، وكثيرا ما يسقط وهو فى غمرة المعركة إلى الدرك الأسفل من الانحلال .

* * *

ولست أنوى المضى فى هذا "الشعر" وأنا أحاول علاج المسألة من ناحيتها الاجتماعية ، وإن كان كل إصلاح اجتماعى ينبغى أن يحسب فيه حساب العوامل النفسية بجانب العوامل الأخرى الكثيرة ، فلننظر فى الوسائل التى تنهى بها المعركة الخالدة بين الوقت وبين المصريين !

إن الطفولة هى المرحلة التى تبذر فيها بذور العادات والأخلاق ، ونسوء الحظ أننا لا نستطيع السيطرة على هذه المرحلة ولا توجيهها فى البيوت وفى وسط الأسر ، طالما أن الأسرة المصرية متخلفة فى عقليتها ، وطالما أن البيت المصرى لا صلة بينه وبين المدرسة تبعا لذلك .

وكل ما نملكه أن نستلفت أنظار الأسر المثقفة — وهى قليلة — إلى العناية بمرحلة الطفولة على نسق خاص وإلى العناية بالتوجيهات التى سنتحدث عنها فى المرحلة التالية حينما تتسلم المدرسة الأطفال وتستنقذهم من فساد البيئة فى البيوت .

فالمدرسة هى المعمل الوحيد لمطالب بصهر هؤلاء الأطفال وإعادة صياغتهم ، وهى مهمة صعبة جدا ولكنها ليست مستحيلة . غير أن المدرسة فى وضعها الحاضر لا تصلح لأداء هذه المهمة ، طالما أن العقلية المسيطرة عليها هى عقلية التعليم المحدودة لا عقلية التربية الشاملة .

وقبل أن يقودنا هذا الكلام إلى اليأس نبادر فنقول : إن كل شىء ممكن حين تخلص النية وتتوجه العزيمة ، وليت الأساتذة ينسون ما هم فيه من غبن ، وما يرهق أعصابهم من جهد ، وما يغل نشاطهم من قيود ، فيعملوا على تحسين صياغة الجيل الجديد .

وقد عالج الكثيرون مشكلة الوقت تحت عنوان " تمضية أوقات الفراغ " وأنا أكره تسمية الوقت الزائد عن العمل الرسمى بوقت الفراغ ؛ بل أنا أميل إلى احتسابه وقتا أساسيا لا تقل قيمته إن لم تزد على وقت العمل الحرفى .

وقد يقضى هذا الوقت الزائد فى اللهو والتسلية أو الراحة والاستجمام ، ومع ذلك لا يعد فى نظرى "وقت فراغ" ولا أجيز هذه التسمية ، التى تشعر بأنه أقل قيمة من وقت العمل فى حياة الإنسان .

ووجه المسألة كله يتغير حين نلقى فى روع الأطفال والصبيان والكبار أن الحياة أعز ما وهبته القدرة الخالقة للأحياء ، وأثمن الكنوز التى يدخرها أبناء الفناء ؛ وأن العمر هو الفرصة الذهبية التى لا تعود ولا تعوض ليصنع الإنسان فيها شيئا مثمرا له ولأبناء جنسه ، وأن وقت الجهد والعمل ، ووقت اللهو والتسلية ، ووقت الاستجمام والراحة تشترك جميعها فى تحقيق انتظام حياة الفرد والجنس ، و إثمارها أفضل الثمرات ، وحفظها من عوامل الهدم والآفات .

و إذ ذاك يغدو الوقت كله ثمينا فى نظر الناس ، وترتفع قيمة الحياة الإنسانية ، ويتجه النشاط البشرى إلى غايات أوسع يستغرق تحقيقها أضعاف عمر الأفراد .

ولكن كيف نحقق هذا التوجه ؟

إن النصائح والإرشادات لا تجدى ، و إن محاولة مخاطبة الأطفال بعقلية الكبار لا تصلح ، وقصارى ما نصل إليه إذا سلكنا سبيل الخطب المنبرية أو حاولنا أن نجعل الأطفال يفكرون بعقولنا أن نزهدهم فى هذه النصائح ، أو أن نسرق طفولتهم ونتضجهم قبل الأوان !

و إننا لنستطيع أن نصل إلى استغلال جميع الأوقات ، و إلى تعظيم الحياة فى نفوس الأطفال بعدة وسائل عملية غير الوعظ الجاف ، وغير القسر على العمل الممل والتكليف الثقيل .

وأول ما يفيدنا فى هذا السبيل تعويدهم القراءة وتحبيبها إلى نفوسهم بكل الوسائل : بتزيين الكتب وتنميقها ، و باستثارة غريزة الملك فى نفوسهم مما يحفزهم إلى اقتناء الكتب ثم الاستفادة منها ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا كانت الكتب نفسها مشوقة جذابة بشكلها و بموضوعاتها .

وهذا يجرنا إلى الكلام عن فقر مكتبة الأطفال فى مصر و إقفارها إلا من القليل النادر من الكتب المشوقة الجميلة . وقد كتبت عن " القراءة " موضوعا كاملا فى العدد الماضى فلا أعيد هنا ما سبقت كتابته .

غير أنى أربط بين عادة القراءة و بين الاعتزاز بالوقت والتسامى بالحياة ، إذ القراءة على هذا النحو تصبح عادة كلما تقدم الزمن بالطفل ، وهى عادة حميدة تعصمه من الضيق بالوقت ، وتجدده بين حين وآخر فلا يجمد ولا يتحجر ، وهذا التجدد يجدد آماله وأهدافه فى الحياة ، فتعظم فى نفسه وتتسامى فى إحساسه ، ويحس بأزمة فى الوقت فيحتفظ بالساعات والدقائق لقضائها فيما يحقق أهدافه وآماله .

وقد تصبح القراءة للمعرفة هدفا فى ذاتها ، وهذا أرقى ما تصل إليه النفس البشرية من تعظيم الحياة والسمو بها عن العبث الفارغ واللهو العقيم .

فاذا لم نجد من بعض الأطفال استعدادا لإنفاق نشاطهم الكامن فى القراءة ، فعلينا أن نوجهه وجهة عملية باستغلال غريزة " التكوين والتحيل " . والأشغال اليدوية وفلاحة البساتين من أهم ما يلبى نشاط هذه الغريزة . ولكن ينبغى أن تكون لها أهداف عملية ، ولا ينقضى وقت الأطفال فى العبث بهما أو فى صنع أشكال ونماذج لا نفع لها فى الحياة العملية . ذلك أن أشد ما يثير نشاط الطفل وحرصه على العمل أن يرى فى النهاية ثمرة جهده شيئا عمليا نافعا فى المدرسة أو البيت أو السوق . ولهذا يجب أن تكون الأشغال عملية بمعنى الكلمة وأن تحاول المدرسة تصريفها فى السوق أمام أعين الأطفال الذين قاموا بصنعها ، وياحبذا لو عاد عليهم بعض ربحها ليذوقوا لذة الكسب وثمرة العمل ، فيصبح عادة لهم فى الأوقات التى تفيض عن العمل الرسمى فيما بعد .

ومثل الأشغال والفلاحة ، تدريب التلاميذ على الأعمال التجارية الخفيفة فى "كنتين" المدرسة مع منحهم شيئا من ربح " الكنتين" فى مقابل مجهودهم لنفس السبب الذى أشرنا إليه فيما تقدم .

فإن لم نستطع إنفاق نشاط التلاميذ فى القراءة ولا فى الأعمال اليدوية أو المرانة على العمل التجارى ، ففى الألعاب الرياضية متسع للجميع ، وقد تحدث الكثيرون عن جدوى هذه الوسيلة فى إنفاق ما يسمونه " أوقات الفراغ " فلا حاجة إلى تكرار كلام معاد .

ولولا أن أخشى اتهامى بالإغراق فى الخيال لنصحت بأن تكون الخدمة الاجتماعية جزءا من برامج التربية فى المدرسة فى المجال المناسب للتلاميذ والطلاب ، فليس هناك من الوسائل ما يرفع شأن الحياة وقيمة الوقت من الاشتغال بالهموم العامة والخدمة الاجتماعية.

* * *

إلا أن المدرسة وإن استطاعت أن تبذر بذور العادات التى تنفع فى الشباب والكهولة أضيق من أن تسع الحياة كلها وأضعف من أن توجه المجتمع توجيها كاملا ، ولا سيما فى البيئة المصرية التى تقاوم تعاليم المدرسة كل المقاومة .

والعمل والقراءة والألعاب لا تكفى فى " معركة الوقت " فلا بد من ساويات أخرى ، سلويات بريئة لا تهبط بالنفس الإنسانية ولا تصغر من قيمة الحياة وأغراضها ، سلويات غير القمار وسباق الخيل والنرد والدومينو وقراءة الروايات الساقطة والتطلع إلى الوجوه وقرقزة اللب وتناول أعراض الناس والوقيعة بين العباد .

ومصر على العموم تنقصها مباهج الحياة ، فتخيم عليها كآبة قاتمة ، ليس هنا مجال تفصيل أسبابها (وقد فصلتها فى مقال بالعدد الثالث من السنة الأولى بهذه المجلة) ولكن أقول هنا : إن هذه الكآبة تجر إلى كثير من السلويات الضارة كالخمور والمخدرات والسعار الجنسى بل إلى الجريمة فى كثير من الأحيان .

ولعل كثيرا من القراء لا يعرفون أن قلة السلويات وكآبة الحياة فى الصعيد وضيق مجال التصريف الطبيعى للطاقة الجسدية والخيالية لدى الشبان تدفع بهم إلى ممارسة جرائم السرقة والنهب والقتل فى بعض الأحيان ، لمجرد إظهار الفتوة وتصريف الطاقة الزائدة والتلهى بهذه التسلية المفزعة ، فإذا سلموا من السجن لم تتأصل الجريمة فى نفوسهم وعزفوا عنها بمجرد تقدم السن ونفاد الطاقة !

والظلام الذى يخيم على الريف من أشد عوامل الكآبة وتلمس السلويات الضارة فى المخدرات وسواها ، فهو لا يقل عن الفقر فى إيجاد هذه الحالة وفى ضيق الصدور بالوقت مع ما يبذله الريفيون من جهد مضن فى أعمالهم الزراعية .

ومصر أكثر بلاد الله احتفالا "بالموالد" وهذه الاحتفالات هى حيلة من حيل العقل الباطن للتنفيس ، ومع ما يتخلل هذه الموالد من نقائص ومساخر وتوكيد للخرافات والشعوذات فإننى لا أشير بالتقليل منها أو الضغط عليها ، فما هى إلا حيلة كما قلت للتفريج وللإضاءة وللثورة على الظلام ، ولإنفاق النشاط الدفين الذى لا يجد له متصرفا فى أوساط العوام .

ولعل هذا الاتجاه النفسى إلى الإكثار من حفلات الموالد والأذكار ، يهدينا إلى وسيلة من وسائل التفريج والبهجة ، فمصر — مع كثرة الموالد — قليلة الأعياد والمواسم ويجب أن يكون من برنامج الاصلاح الاجتماعى الإكثار منها والتنويع فيها ومحاولة إدخال البهجة عليها .

وعندنا فيما عدا المولد النبوى والمحمل ووفاء النيل وشم النسيم مواسم أخرى يمكن افتتاحها افتتاحا رسميا فى جميع أنحاء البلاد بمواكب ومظاهرات وزينات ومباهج تملأ نفوس هذا الشعب الحزين بالبهجة والنشاط والسرور ، كعيد رأس السنة الهجرية وموسم حصاد القمح وموسم جنى القطن ومواسم الألعاب الشعبية . وكل ما فى هذه المهرجانات من مثالب مغفور إذا نظرنا إلى قيمتها النفسية فى خلق جو من المرح والسرور والتسلية البريئة التى لا تضر ضرر الجرائم والمخدرات .

وتجميل المدن والقرى وتزيينها بالمتنزهات والمناظر وإنشاء "كورنيش النيل" وإقامة سباق للزوارق وآخر للسباحة وفتح المعارض الصناعية والزراعية والحيوانية ، وأمثال هذه المناظر والوسائل كلها مبهج ومنشط ومزيل للكآبة الجاثمة على الصدور ، وفى ذلك ما يخفف وطأة الفراغ ويجعل الزمن عزيزا والحياة غالية حتى عند الجماهير .

وبعد فإن مما يستحق الذكر فى هذا المجال النوادى الخاصة. فالنادى الذى يضم طائفة متجانسة من العقليات والبيئات هو خير مكان للاجتماع وللتسلية البريئة، ولكننا أصلنا نوادينا ملاهى للقمار والشراب وألعاب الدومينو والنرد والشطرنج ، وذلك لخلو حياتنا من المباهج البريئة من جهة ، ومن الهموم العالية من جهة أخرى .

وأخشى أن أشير بالإكثار من النوادى ، فتكون ترجمة هذه الاشارة الإكثار من المقاهى الخاصة باسم " النادى " ما دامت على هيئة نوادينا الحاضرة . فتغيير المظاهر والأشكال لا يجدى نفعا ما دامت الحقائق والأفكار من ورائها لم تتبدل .

ولهذا يجب أن ينصرف همنا فى المدرسة وفى الصحف وفى الاذاعة إلى التكبير من شأن الحياة وإلى غرس عادة القراءة وحب المعرفة والاشتغال بالمسائل العامة ، حتى يكون هذا كله رصيدا ثابتا فى نفوسنا يدفعنا إلى الحرص على الزمن، وإلى استغلاله فى العمل أو الرياضة أو الاستجمام مع الاعتزاز به ومعرفة قيمته ، فى البيت أو النادى أو الديوان .

ومما يذكر فى هذا المجال حادثة طريفة وقعت فى أحد المقاهى، ذلك أن بعض الجنود البريطانيين كانوا يرتادونه فى أيام كثيرة، وفى كل ليلة كانت أنظارهم تقع على جماعة من الموظفين المصريين يلعبون النرد ساعات طويلة، وفى يوم من الأيام وقفوا يسألون اللاعبين: أفى كل يوم تلعبون هكذا ؟ قالوا : نعم . قالوا: أليس لكم مشاغل أخرى تمنعكم من المواظبة على تمضية هذه الساعات وأنتم جلوس ؟ قالوا : لا . قالوا : ألا تقضون بعض الأوقات فى مزاولة ألعاب رياضية ؟ قالوا : كلا !

وعندئذ انهالوا عليهم ضربا وهم يقولون : أليس لكم أولاد ؟ أليست لكم بيوت ؟ ألا يشغلكم شىء من هموم الدنيا ؟ ... وكانت "علقة ساخنة" تحدث بذكرها أهالى حلوان !

وخير ما أختم به هذا المقال تلك الأقصوصة الصغيرة عن رجل سار فى مقبرة قوم لا يعرفهم، فوجد على كل مقبرة لوحة كتبت فيها بعض الكلمات . . . وقرأ فى لوحة منها : " فلان ولد وعاش سنة ومات " وفى لوحة أخرى : " فلان ولد وعاش شهرا ومات " وفى لوحة ثالثة : " فلان ولد وعاش يوما ومات " وفى لوحة رابعة : " فلان ولد وعاش ساعة ومات "... وهكذا مضى فى قراءة اللوحات فلم يجد أن أحدا من هؤلاء الموتى زاد على أعوام قصيرة، فعجب وسأل بعض أهل البلد : لماذا تقصر الأعمار عندكم ولا يعيش الواحد منكم إلا بضعة أعوام ؟ فكان الجواب: ليست هذه أعمار من ماتوا ، وإنما هى أعمار أعمالهم النافعة فى حياتهم !

فكم عندنا يا ترى ممن " ولدوا وماتوا فى لحظات " ؟ إنهم ولا شك أغلبية عظمى ، بل لعل كثيرين منهم لم يولدوا أصلا على الرغم من سجلات المواليد والوفيات ! ! !

س . ق